أطروحات...

حول علاقة المذهب بالمنهج في الفلسفة

إعداد د. عبدالرزاق الدواي (*)

نص مختصر معد للإلقاء :

١ - مقدمة :

نعنى بالمنهج فى الفلسفة : «خطوات سير العقل فى النظر والبحث الفلسفى، إما من أجل الكشف عما يُفترض أنه الحقيقة، حين نكون جاهلين بها، أو من أجل نشرها وإقناع الآخرين بها حين نكون بها عارفين».

التفلسف نشاط فكرى أسبقُ من التفكير فى طريقة التفلسف. ومن المفروض أن هناك طرقاً خاصة للتفلسف والنظر فى المسائل والإشكالات التى يواجهها الإنسان فى العالم وفى المجتمع. وقد وُوجه الفكر الفلسفى خلال تاريخه ولا يزال يُواجَه إلى أيامنا هذه ، بتساؤلات مُلحة حول ما يميزه ويميز طرائقه ومناهجه عن أشكال الفعاليات الفكرية الأخرى. وقد اهتم تاريخ الفلسفة فى أحيان كثيرة بدراسة ما يمكن اعتباره بدايات أولى لمخاض وميلاد الأفكار الفلسفية، كما أولى عنايته بطرائق التأمل والاكتشاف والاستدلال والحجاج التى اعتمدها الفلاسفة، صراحة أو ضمنا، للتعبير عن أفكارهم وصياغة نظرياتهم ومحاولة إقناع الآخرين بها. وقيل فى هذا السياق إن أبرز الطرائق الخاصة التى سلكها هذا الفكر منذ فجر تاريخه تجلت فى الأسطورة والقول الشعرى، وفى مرحلة تالية فى الجدل والحوار والتأمل الحدسى والعقلى.

٢ - السؤال حول نشأة المنهج فى الفلسفة :

لكى يكون المذهب الفلسفى مفهوما ومقنعاً ، ولكى يكتسب أتباعاً ويُكتب له نوع من البقاء فى حقل تاريخ الفلسفة ، يجب أن يكون قائماً على منهج معين

(*) جامعة محمد الخامس، كلية الآداب ، قسم الفلسفة ، الرباط، المغرب.

بواسطته تُبسط الأفكار وتُبرَّر المواقف وتُدعم الأطروحات: «حتى الفلسفات التى فضلت فى أسلوبها، الاستراتيچية الشذراتية والاستعارية ، أو الاستراتيچية الشعرية والخطابية، لا تخلو كلياً من الخاصية الاستدلالية والحِجاجية بوجه من الوجوه، وبعبارة أخرى إنها لا تخلو من منهج.

ولكن: «**هل ينشأ المنهج فى الفلسفة قبلياً أم بعدياً؟**»، هذا هو السؤال النظرى الأساسى الذى يطبع النقاش حول إشكالية المنهج فى الفلسفة، ولتمهيد الإجابة عنه نقول : إن بإمكاننا النظر إلى أى فلسفة من زاويتين:

أ - **أن ننظر إليها من زاوية تكوينية** : أى من خلال سيرورة إنتاجها وتكونها. من خلال حكاية ما حدث بين اللحظة التى خطرت فيها بذهن الفيلسوف الفكرة الأولى لمشروعه، واللحظة التى ظهرت فيها معالم الموقف أو النظرية واضحة. من خلال هذه النظرة تُبرز لنا المحاولات المتعددة التى بذلها الفيلسوف لتلمس الطريق والإمساك بخيوط الأفكار وإرهاصات الأطروحات. هنا يصح القول إن الفيلسوف قد عرض أفكاره على نحو طبيعى وتلقائى وبدون أن يكون المنهج معروفاً لديه مسبقاً؛ إننا أمام فعالية عقلية لم تُحَدد خطواتُها بشكل قبلى، ولا يبدو أن فيها إلزاماً باحترام قواعد موضوعة ومعلومة من قبل. فى هذه الحالة يصح القول إن المنهج مساوق فى نشأته لتكوُّن ومخاض وميلاد الأفكار الفلسفية ذاتها.

ب- وإما أن ننظر إليها وكأنها مَتْنٌ مُنته ، أو نسق من المفاهيم والتصورات اكتملت صياغتها بعد المرور بعدة مراحل من التعديل والتدقيق والصقل، بحيث أصبحت متماسكة ومتسقة، ولم يعد فيها أثر كبير لصراع الفيلسوف مع ذاته. فى هذه الحالة يمكن أن نستخلص منها طريقة التنظيم التى تخترقها؛ ونصيغ خطواتها فى مجموعة من القواعد، ونقول أن هذه الفلسفة اتبعت هذا المنهج المعين أو ذاك من أجل كشف حقائقها وعرضها. ويكون المنهج فى هذه الحالة بعدياً. أما عندما نعمد إلى هذه القواعد ذاتها ونعتبرها قواعد عامة لأى بحث وتفكير فى الفلسفة يأتى لاحقاً ، فإن المنهج يكون حينئذ قبلياً وتأملياً.

٣ - المنهج فى الفلسفة بين الخصوصية والاختلاف:

هناك مجموعة من الفلاسفة تدافع عن فكرة أن الفلسفة هى خطاب المعقولية والعقل ، لكنها تعتمد على المنهج المنطقى والعقلى فى البراهين والحجج التى تدعم وتُبرر بها القضايا الفلسفية التى تُراهن عليها؛ ولا مكان فى هذا الخطاب العقلانى للتمثيل وللمتَخيَّل وللأسطورة ، فهذه عناصر تشكل الآخر بالنسبة للفلسفة ونقيضها ومنبوذَها. والظاهر أن هذا هو الموقف الذى يتبناه ويدافع عنها - رغم بعض الاختلافات البيِّنة - فلاسفة مثل : أرسطو، ديكارت، سبينوزا، لايبنز، كانط، هيجل. وتشكل الرياضيات فى نظر هؤلاء أصحاب المذاهب العقلانية، باستثناء قلة مثل هيجل ، الصورة المثلى للمعرفة، فهى تقدم نموذجاً خصباً يضمن الحصول على معرفة يقينية.

وهناك عينة ثانية من الفلاسفة تجمعهم نظرة أخرى إلى الفلسفة تتلخص فى القول إن للفلسفة معرفتها الخاصة، وميداناً يخصها وحدها ومنهجاً غير قابل للاختزال إلى أحد مناهج الفروع المعرفية الأخرى؛ منهج يعتمد على قدرة إنسانية أصيلة تتمثل فى الحدس والوجدان والرؤية ، ويعتقد هؤلاء أن مذاهبهم ونظرياتهم هى نتاج لهذه القدرة. وعلى ما يبدو فتلك هى الطريقة التى اختارها فلاسفة مثل: نيتشه، برجسون، هوسرل، وفلسفات الوجود عموماً.

٤ - المنهج والسؤال "ما هى الفلسفة"؟

لم تتوقف الفلسفة فى مختلف فترات تاريخها، وحتى فى عصرنا الحالى، عن التساؤل عن طبيعتها وعن الغاية منها، من خلال إعادة طرح السؤال «ما هى الفلسفة»؟ وهناك أجوبة عديدة ومختلفة أعطيت لهذا السؤال. وفى كل مرة يُعاد فيها طرح السؤال «ما هى الفلسفة»؟ ، يبدو جليا وكأن الفيلسوف المتسائل ليس مقتنعاً بالأجوبة السابقة التى تمكن من الاطلاع عليها، وكأنه بصدد اختبار واقتراح طريقة جديدة فى التفلسف ، يطمح من ورائها إلى تجاوز طرق ومواقف سابقة، وتوسيع أفق نظرة الفلسفة إلى واقع العالم والإنسان المعقد والمتنوع ، وتعميق فهمه.

إن تعريف أرسطو للفلسفة هو تعريف لفلسفة أرسطو الخاصة . . وهكذا دواليك بالسبة للتعاريف التى اقترحها جميع الفلاسفة . ولكن إلى أى حد تمثل فلسفة أرسطو، أو فلسفة أى فيلسوف آخر، تعبيراً أصيلاً عن ماهية الفلسفة ذاتها، التى هى كما نعرف جميعاً خاضعة للتغير التاريخى.

٥ - المنهج فى الفلسفة لا ينفصل عن المذهب :

نحن نرى أن المنهج لا يسبق المعرفة الفلسفية بل يواكب مراحل إنتاجها ثم يلحقها عندما تستخلص خطواته وتتحول إلى قواعد، من منظورنا لا يمكن وضع خطاب فى المنهج يسبق الفلسفة إلا لأغراض تعليمية ؛ فالمنهج فى الفلسفة ليس خارج النظرية الفلسفية أو المذهب إلا وجود مجرد وإسمى. وفحص عينات مختلفة من المذاهب الفلسفية يقدم لنا ما يكفى من القرائن على أن المنهج فى الفلسفة لاينفصل عن المذهب، وأنه نادراً ما ينشأ قبلياً بل يستخلص بعدياً من تتبع سيرورة نشأة المذهب الفلسفى وتكوينه. هل يمكن مثلاً أن نفصل المنهج العقلانى والمنطقى عند أرسطو عن الفلسفة الأولى؟ والمنهج المثالى النقدى عن فلسفة كانط، والمنهج المثالى الجدلى عن الفلسفة الأولى؟ والمنهج المثالى النقدى عن فلسفة كانط، والمنهج المثالى الجدلى عن فلسفة هيجل، والمنهج الوضعى المنطقى عن الفلسفة الوضعية الجديدة؛ والمنهج الفنمنولوجى التفكيكى عن فلسفة هيدجر . . ؟

هناك إذن علاقة وثيقة بين المذهب والمنهج فى الفلسفة. وما يمكن استخلاصه من هذه العلاقة هو أن المناهج فى الفلسفة تختلف باختلاف المذاهب الفلسفية، وهذا ما يقودنا إلى طرح سؤال آخر: **هل تتطور الفلسفة ومناهجها تطوراً ذاتياً ومستقلاً؟**.

٦ - عن الصراع فى الفلسفة وتجدد المناهج :

إن تاريخ الفلسفة لا يفتأ يؤكد لنا هذه الحقيقة المثيرة : إن جميع المذاهب الفلسفية الكبرى تتعارض فيما بينها وينفى كل واحد منها الآخر ويسعى إلى تفنيده، سواء كان معاصراً له أو سابقاً عليه، حتى صار تاريخ الفلسفة كما يقول كانط ساحة معارك لا يكاد فيها الصراع يتوقف إلا لكى يستأنف من جديد! إن الحوار والجدال بين الفلاسفة يتم خارج الزمان.

إن الفلسفة مجال فكرى يتكرر فيه الحوار والجدال والصراع النظرى باستمرار بين الفلاسفة، وبين المذاهب والمناهج الفلسفية. والمناهج هى أدوات وأسلحة هذا الصراع التى تَتجدَّد بواسطتها طرائقُ التفكير وأشكال الحجج المستعملة. أما التغيير الناجم عن هذا الصراع ، والذى قد يطال مضامين الأفكار والأطروحات الفلسفية وأشكال الحجج والدلائل، فيبدو أن الفلسفة لا تقوم به من تلقاء نفسها، بل هو فى غالب الأحيان يكون، كما يقول ألتوسير، بمثابة ردود فعل من جانبها، على ما يتحقق من اكتشافات فى ميدان العلوم.

٧ - الفلسفة تجدد مناهجها استلهاما من الثورات العلمية :

نفهم مما تقدم أن الفيلسوف فى تأملاته ومواقفه وبراهينه يستند إلى بعض نتائج علوم عصره . وأن المناهج الجديدة فى مجال الفلسفة مستعارة ومستوحاة فى أغلبها من مناهج علوم عصرها . أو هى بمثابة ردود فعل انتقادية تجاهها وعليها. فانطلاقاً من تطور العلوم وطفراتها تُجدد الفلسفة مواقفها وأطروحاتها ، وتُعيد النظر فى صياغة إشكالياتها.

إن تطور المناهج فى الفلسفة غالباً ما يكون بمثابة ردود فعل - إيجابية أو سلبية- تجاه ما يستجد فى ميادين العلوم ومناهجها وخاصة : الرياضيات، العلوم الفيزيائية، علوم الحياة ونظرية التطور، التحليل النفسى، اللسانيات، المعلوميات، والأمثلة على ذلك كثيرة : الديكارتية بفروعها، الفلسفة النقدية عند كانط، الفلسفة الوضعية، البرجسونية ، الوضعية المنطقية وفلسفة التحليل، الفنمنولوچيا - وهى هنا تمثل حالة ساهمت على عكس المتوقع فى قطع الأواصر بين الفلسفة والعلم - والوجودية ، ثم البنيوية فى الستينيات التى تخلت عن التحليل الوجودى واهتمت أكثر بالأنساق وبالبنيات والعلاقات . . . إلخ.

٨ - عن الاختلاف والتعدد فى الفلسفة ومناهجها :

الفلسفة لم تشكل خلال تاريخها الطويل كُلا وحدة متجانسة، بل كانت دائماً عبارة عن سيرورة فكرية جدلية جوهرها الاختلاف والصراع بين المذاهب والتيارات.

ويبدو أحياناً أنه لا مفر من التسليم بضرب من النزعة الفوضوية فى الحقل الفلسفى؛ وأن هذه النزعة تكون أحياناً من أسباب حدوث طفرات حقيقية فى هذا الحقل.

ونجازف هنا بتبنى ما يقوله فييرابند (P. Feyerabend) عن الميادين العلمية، ونقترح مماثلته بمجال الفلسفة :

إن فكرة وجود منهج فى الفلسفة قائم على مبادئ راسخة وثابتة ، بحيث يجب الخضوع لها بالضرورة، هى فكرة تعترضها عدة صعوبات .. وخاصة عندما نواجهها بتقصى تاريخ الفلسفة. سنلاحظ أنه لا توجد هناك قواعد فى مناهج التفكير الفلسفى لم يتم خرقها وتجاوزها ، وهذه الانتهاكات ليست أحداثاً عابرة، وليست ناتجة عن معرفة محدودة وقاصرة.. أو عن أخطاء كان بالإمكان تلافيها، إن هذه الخروقات ، كانت على العكس من ذلك ضرورية لكى تحدث طفرة نوعية فى الفلسفة.

إلى ماذا يمكن رد هذا التنوع والاختلاف فى الفلسفة ومناهجها؟

الظاهر للوهلة الأولى أن تعدد المذاهب فى الفلسفة راجع إلى كون الفلسفة تسعى إلى إيجاد نظرة شاملة عن الوجود وعن الحياة، وهذا النزوع إلى الشمول يعرضها إلى التعميم والمجازفة وهناك اختلاف فى المذاهب الفلسفية لأن لا واحد منها بإمكانه أن يستغرق أو يستنفذ هذا الواقع كله ، والمذاهب الفلسفية جميعها هى فى حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون مواقف ووجهات نظر مختلفة نحو العالم ونحو الواقع الإنسانى. فكل مذهب فلسفى هو ، كما يقول هيجل ، تعبير عن روح عصره . وفضلاً عن ذلك فمن أسباب التنوع والاختلاف كذلك أن نشأة المذهب الفلسفى وتطوره تتوقف على عدة متغيرات تاريخية : منها تطور العلوم والمعارف، وتطور المجتمعات البشرية، ولا ننسى كذلك تأثير شخصيات الفلاسفة وأحداث سِيَر حياتهم.

٩ - خلاصات :

يعد التأويل و «القراءات الجديدة» من أهم مصادر التجديد فى الفلسفة، وهذه القراءات تصبح ممكنة بفضل استخدام مناهج مستحدثة تُوسِّعُ آفاق التأويل، وهى

مناهج تستعار أو تستلهم غالباً من تطور بعض الميادين العلمية الرائدة، وتستجيب لتطلعات الفيلسوف وانشغالاته الحاضرة. نذكر على سبيل المثال: الماركسية، التحليل النفسى، البنيوية، الحفريات، الجنيالوجيا، النقد التفكيكى، العقلانية التواصلية.

لا يكفى الفيلسوف اليوم أن يُنصت إلى الوجود ويستلهم من تجاربه الشخصية لكى يُنتِج فلسفة؛ فهناك شروط معرفية ضرورية لتجدد الفلسفة ومناهجها ، إن الثورات العلمية والتكنولوچية ومنجزاتها وتناقضاتها واحتمالاتها وعواقبها المذهلة تؤدى إلى ما هو فى الحقيقة مشكلات فلسفية جديدة، مثلا: إن السؤال: «ما هى الفلسفة»؟ يتحول فى عصرنا إلى سؤال عن المصير التاريخى للبشرية، ويصبح مشكلة حضارية.

نحن نعيش مرحلة تعدد القيم والمناظير بحيث يمكن القول إن أى منهاج لايستطيع أن يزعم لنفسه السيادة والتفرد بمجال الفكر الفلسفى كله؛ إن كل منهج من مناهج التفكير الفلسفى، ومهما يكن قدر رسوخه، لابد أن تُنتهَك قواعد فى فترة من الفترات ؛ وجلُّ مناهج البحث والتفكير فى الفلسفة ، وبعد أن تعطى ثمارها يأتى عليها يوم تفقد فيه خصوبتها وتصبح عاجزة عن أن تفيد بجديد.